العرس وحفلة عيد الميلاد

قصة لدستويفسكي

ترجمة سمير كرم

رأيت بالامس حفلة عرس .. لكن لا ، فالاحرى بي ان انبئك عن حفلة عيد الميلاد . حفل العرس كان رائعا . لقد اعجبني كثيرا ، الا ان الحدث الاخر كان اروع . انني لا اعلم لماذا تذكرت حفل عيد الميلاد ذاك بينما كنت ارقب قبل العرس . لكن هذا ما حدث . ففي بداية العام الجديد .. منذ حوالى خمسة اعوام مضت من اليوم . كنت ضيفا في حفل للاطفال . وكان السيد الذي دعاني شخصا معروفا في دوائر الاعمال ، كان رجلا ذا صلات كثيرة ، وشلة من الاصدقاء والدسائس. ومن ثم كان المفروض ان هذا الحفل للاطفال حجة للاباء ليجتمعوا ويناقشوا مع المسائل الهامة المختلفة ، بطريقة بريئة عرضية ، بالصدفة. وكنت غريبا هناك ، لم يكن لدي مسائل اناقشها ، ولهذا كنت منطويا على نفسي طوال المساء . وهناك كان سيد اخر ، بدا مثلي انه ليس له اصدقاء او اقارب ، لكنه تصادف ان حضر هذا المظهر من الابتهاج العائلي . وقد جذب انتباهي اكثر من اي انسان اخر . كان رجلا طويلا ، عطوفا ، جادا ، حسن الملبس تماما . لكن كان من الواضح ان ذهنه لم يكن حاضرا ، ولا كان مشغولا بهذه الحفلة العائلية . ففي اللحظة التي ابتعد فيها الى ركن في مكان ما ، وقف مبتسما وقطب حاجبيه الاسودين الكثيفين. ولم يكن يعرف شخصا في هذا الحفل الا مضيفه . وكان من الواضح انه متضايق بصورة شديدة ، غير انه قام ـ بكل شجاعة ، حتى النهاية ـ بدور انسان مكتمل السعادة والسرور. وقد علمت فيما بعد ان هذا السيد قدم من الضواحي ، وان لديه بعض الاشغال الهامة المعقدة في العاصمة ، وانه جاء بخطاب تعرف لمضيفنا الا ان الاخير لم يعطه اهتماما ابدا ، بل دعاه فحسب الى حفل اطفاله من باب الادب الشديد . لم يلعب احد الورق ، ولم يقدم له واحد سيجارا ، ولم يدخل مع احد في حوار ، ولذلك كان صاحبنا مضطرا لان يحك سوالفه المساء كله ، لمجرد ان يشغل يديه . لكنه كان يحكهما باعتزاز شديد ـ حتى ليعتقد المرء ـ اذا نظر اليه ـ اعتقادا وثيقا انهما اول السوالف في العالم .

والى جانب السيد الذي كان يشترك على هذا النحو في اجتماع عائلة مضيفه ، والد الصبية الخمسة المتخمين ، كان هناك شخص جذب انتباهي . الا ان هذا الاخر كان ذا طابع مختلف تماما . كان «شخصية» اسمه يوليان ماستاكوفتش . يستطيع المرء اول نظرة اليه ان يفهم انه ضيف الشرف ، وانه يقف من المضيف ، نفس الموقف الذي يقفه المضيف من السيد الذي يحك سوالفه . كان المضيف والمضيفة يحيطانه بمظاهر التكريم ، كانا متفرغين له ، يملآن كاسه باستمرار ، ويتذللان اليه! وكانا يأتيان بضيوفهما ليقدماهم اليه ، بينما لم يقدم هو الى احد . وقد لاحظت ان دمعة لمعت في عين مضيفي حينما قال يوليان ماستاكوفتش ، معلقا على الحفل ، انه لم يقض وقتا طيبا كهذا . ولقد اخافني بعض الشيء ان اظل في حضرة شخص كهذا ، ولذلك ، بعد ان القيت نظرة بهيجة على الاطفال انسحبت داخل حجرة جلوس صغيرة كانت منعزلة تماما ، والتمست الامان في تكعيبة ازهار المضيفة ، التي كانت تشغل نصف الحجرة تقريبا .

كان الاطفال جميعا وسيمين بصورة عجيبة ، وقد رفضوا اطلاقا ان ينضموا الى الكبار ، رغم كل نصائح مربياتهم وامهاتهم . لقد التهموا شجرة عيد الميلاد حتى اخر قطعة فيها في ظرف ثوان ، وعمدوا فورا الى تكسير اللعب قبل ان يعرفوا اللعبة التي تخص كلامنهم . ولقد اعجبت بصفة خاصة بصبي صغير داكن العينين مجعد الشعر ، كان منهمكا في التصويب الي ببندقيته الخشبية ، الا ان اروعهم جميعا كانت شقيقته، فتاة في الحادية عشرة تقريبا ، حلوة كانها كيوبيد ، منطوية ، كثيرة التفكير ، وشاحبة ، لها عينان كبيرتان مشغولتان بارزتان . ولا بد ان الاطفال الاخرين اغاظوها ، ولهذا جاءت الى حجرة الجلاس حيث كنت انا . وشغلت نفسها في ركن بعروستها . اما والدها ـ وهو صاحب ارض ثري ـ فكان يشار اليه من الضيوف باحترام ، ولقد دار الهمس بان مبلغ ثلاثمائة الف روبل قد دفعت لها مهرا . حملقت خلفي لانظر الى الاشخاص الذين كانوا يبدون اهتماما بهذا الموضوع ، فوقعت عيناي على يوليان ماستاكوفتش ، الذي كان ينصت ، ويداء معقودتان خلف ظهره ورأسه مائل قليلا الى جانب ، الى هذا الحديث التافه بدرجة معينة من الحدة .

بعد ذلك ، لم استطع الا ان اعجب لحكمة مضيفي في توزيع هدايا الاطفال . فقد اخذت الفتاة ، التي كانت قد نالت توا مهرا من ثلاثمائة الف روبل ، عروسة فاخرة ، وبعد ذلك اخذت الهدايا تنخفض قيمتها تبعا لنزول مراتب اباء كل هؤلاء الاطفال المحظوظين . وفي النهاية ، لم تعط اخر الاطفال ، وكان صبيا في حوالى العاشرة ، نحيفا ، ضئيلا ، وجهه ملىء بالنمش واحمر الشعر ـ لم يعط الا كتابا للقصص يتكلم عن عظمة الطبيعة ، وعن دموع العواطف ، وما اليها ، وليس فيه صور ، ولا حتى لوحة . كانت امه ، وهي ارملة فقيرة ، مربية الاولاد في هذا البيت ، ولذلك كان هو صبيا صغيرا خائفا ، ذليلا في هذا البيت . كان يرتدي سترة من قماش رث . بعد ان تسلم كتابه ، حام قريبا من الاخرين ولعبهم مدة طويلة : كان يريد برغبة ملحة ان يلعب مع الاطفال ، الا انه لم يجرؤ ، وكان من الواضح انه احس توا بوضعه وفهم مكانته . انني مغرم جدا بملاحظة الاطفال . ان استجاباتهم المستقلة الاولى للحياة شيقة للغاية . لاحظت الطفل الاحمر الشعر ، كان مفتونا جدا بلعب الاطفال الاخرين الغالية ، وخاصة بتمثيلهم الذي كان يود بعمق ان يشارك فيه ، ولاحظت انه كان مصمما على ان يلعب لعبة صغيرة ما . فانه ابتسم وتقدم نحو الاطفال الاخرين ، واعطى تفاحة لصبي منتفخ معه منديل مليء بالطيبات مربوط فيه ، بل كان يسمح لصبي اخر ان يركب على ظهره ، لمجرد الا يبعدوه عن تمثيلهم الا ان واحدا من

السخفاء ـ بعد دقيقة واحدة ـ ضربه بحدة ، ولم يجرؤ الطفل على البكاء . ثم ظهرت امه المربية ، وامرته الا يتدخل في لعبة الاطفال الاخرين فانسحب الطفل الى حجرة الجلوس حيث كانت الصبية قد ذهبت . وسمحت له ان يشترك في لعبها ، وبدأ الاثنان يلبسان عروستها الغالية في انهماك كبير .

كنت قد جلست تحت تكعيبة اللبلاب حوالي نصف ساعة . ولم افعل الا ان نعست ، منصتا الى الحوار الهادىء بين الصبي الاحمر الشعر والصبية الجميلة صاحبة المهر الثلاثمائة الف ، بينما كانا يلهوان مع العروسة ، حين دخل يوليان ماستاكوفتش الحجرة فجأة . لقد ازعجته شجار عنيف بين الاطفال في البهو فاتخذ طريقه في هدوء الى هنا . وقد لاحظت انه كان يتحدث في حماس ـ منذ دقيقة واحدة ـ الى والد عروسة المستقبل الثرية ، الذي كان قد قابله توا ، حول تدبير عمل ما لشخص اخر. اما الان فقد وقف منهمكا في التفكير وبدا كما لو كان يعد شيئا على اصابعه .

كان يهمس : « ثلاثمائة .. ثلاثمائة » ، احد عشر .. اثنا عشر .. ثلاثة عشر... و ... ستة عشر ـ خمس سنوات ! ثم ان السنين ، فلنقل انها ستربح اربعمائة في خمس سنوات ، هم ! لا بد انه يحصل على ثمانية او عشرة في المائة . حسنا خمسمائة ، اعني خمسمائة الف ، مضمونة على الاقل ، حسنا والفائض لجهاز العروس ، هم ..

انتهى من افكاره ، وحك انفه ، وكان على وشك ان يترك الحجرة حينما وقع بصره فجأة على الصبية فتوقف. ولم يرني خلف النباتات المتسلقة. وقد بدا لي انه اهتاج بشدة . وربما كان ذلك بسبب حساباته ، او ربما يكون لاي سبب اخر ، لكن ايا ما كان السبب فانه قد حك يديه في قلق ولم يستطع الوقوف ساكنا . وزاد هذا التهيج الى اقصى حد حينما صمت والقى نظرة حازمة الى العروس المستقبلة . وتحرك للامام ، ناظرا حوله اولا رغم ذلك ، ثم بدأ يتسلل الى الطفلة على اطراف اصابعه ـ كما لو كان يحس بالذنب واقترب منها في تكلف ، وانحنى ، وقبل جبهتها . فصاحت الصبية بغتة في انزعاج .. وسأل في همس : « وماذا تفعلين هنا يا طفلتي الصغيرة العزيزة ؟» ونظر حوله ، وربت على خد الفتاة الصغيرة .

« اننا نلعب »

« اه ، معه ؟ » والقى يوليان ماستاكوفتش نظرة زائغة الى الصبي . ولم يقل الصبي شيئا . وحملق اليه بشدة . فنظر يوليان ماستاكوفتش حوله ثانية وانحنى على الصبية مرة اخرى .

وسألها : « وماذا نلت هناك ، عروسة ، يا طفلتي العزيزة ؟ » واجابت الصبية متجهمة منكمشة قليلا : « عروسة .. »

« عروسة .. وهل تعلمين مم صنعت عروستك يا طفلتي العزيزة ؟ » وهمست الصبية الصغيرة مجيبة « لا .. » واخفت راسها تماما . وقال يوليان ماستاكوفتش : « لماذا ، من الخرق ، يا صغيرتي ؟ والقى الى الصبي بنظرة حادة : « يستحسن ان تذهب الى البهو ايها الصبي الصغير ، الى رفاقك في اللعب » .

فجفلت الصبية والصبي وامسكا ببعضهما . لم يكونا يريدان ان يفترقا . وسال يوليان ماستاكوفتش ، فخفضا صوته : « وهل تعلمين لماذا اعطوا لك هذه العروسة » ؟

« لا... »

« لانك كنت طفلة حسنة السلوك طوال الاسبوع . »

وفي هذه اللحظة نظر يوليان ماستاكوفتش ـ الذي كان غضبه قد بلغ مداه ـ حوله وسأل اخيرا ، وهو يتكلم بصوت اخفض واخفض ، بصوت لا يكاد يسمع ، صوت يذوى تماما من الغضب والضجر :

« وهل ستكونين لطيفة معي ـ يا طفلتي العزيزة ـ حينما سآتي لزيارة والديك ؟ »

وود يوليان ماستاكوفتش ـ وهو يقول ذلك ـ ان يقبل الطفلة العزيزة مرة اخرى ، لكن الصبي الاحمر الشعر ، امسك بيديها في يديه حينما رأى انها توشك على البكاء ، وبدأ ينشج من شدة تعاطفه معها . ولقد غضب يوليان ماستاكوفتش غضبا شديدا حقا .

وقال للصبي : « انصرف الى البهو ، اذهب ، اذهب الى الاطفال الاخرين هناك . »

فصاحت الصبية : « لا ، لا تصرفه بعيدا ! اذهب انت ! » ورددت من خلال دموعها : « دعه يبقى ، دعه يبقى »

وسمع شخص ما يدخل الحجرة ، فنصب يوليان ماستاكوفتش ظهره الضخم فورا ، وبدا خائفا الا ان الصبي الصغير الاحمر الشعر كان اكثر خوفا من يوليان ماستاكوفتش ، فترك الصبية ، وفي هدوء اتخذ طريقه خارجا ، ملتصقا بالحائط ، الى حجرة الطعام . ولكي يمنع يوليان ماستاكوفتش اي شك ، دخل الى حجرة الطعام ايضا ، وكان محمر الوجه وبدا ـ وهو يحملق في مرآة انه يزداد ارتباكا امام صورته . وربما كان متضايقا لمظهره القلق الضجر غير العادي . وقد تكون الحسابات التي اجراها على اصابعه قد اثرت فيه تأثيرا شديدا ، واغرته وحيرته ايضا، لدرجة انه رغم هدوئه واهميته تجاسر على التصرف كصبي ، ودخل في الموضوع مباشرة ، مغفلا حقيقة ان هذا الموضوع لا يمكن ان يصبح موضوعا فعليا الا بعد خمس سنين على الاقل . تبعث هذا السيد البارز الى حجرة الطعام وشاهدت منظرا غريبا. كان يوليان ماستاكوفتش ـ وقد تملكه الغضب والغيظ تماما ـ يخيف الصبي الاحمرالشعر ، الذي كان يفلت منه بعيدا بعيدا ، وهو في خوفه لا يعلم اي طريق يسلك .

« انصرف ! ماذا تفعل هنا ايها المحتال ؟ انصرف ! اكنت تسرق الفواكه ؟ انك تسرق الفاكهة . هه ؟ انصرف ، ايها المحتال ، انصرف ايها الشقي ، انصرف، انصرف الى رفاقك ! »

حاول الصبي الصغير الخائف ، وقد قرر في يأس ان يختفي تحت المائدة ، فاخذ مطارده ـ وقد اغتاظ لاقصى حد ـ منديله الاخضر وراح يضرب به الصبي المفزوع تحت المائدة . ولتلاحظ ان يوليان ماستاكوفتش كان بدينا جدا . كان شابا سمجا محمر الخدين ، سمين القد ، بارز البطن ، له فخذان بدينان ، وباختصار كان ما سمى «عفى » ، مستدير الشكل مثل البندقة الصغيرة . كان يفرز عرقا ، ويزفر ، مغتاظا بصوت شنيعة . كان حانقا جدا لشعورة الكبير بالاهانة ، وربما (من يدري ؟) بالغيرة . انفجرت في زئير من الضحك ، فتلفت يوليان ماستاكوفتش حوله ، رغم كل اهمية ، كان منهزما تماما . وفي تلك اللحظة دخل مضيفنا من الباب المقابل . فاندفع الصبي خارجا من تحت المائدة ووقف ينفض الغبار عن ركبتيه ومرفقيه . واسرع ماستاكوفتش يمسح انفه بالمنديل الذي كان يمسكه من احد اطرافه .

نظر المضيف الينا نحن الثلاثة في شيء من الدهشة ، لكن لما كان رجلا يفهم الحياة وينظر من وجهة نظر جدية ـ انتهز فرصة انه وجد ضيفه وحيدا .

قال مشيرا الى الطفل الاحمر الشعر : « هذا هو الصبي ، الصبي

الذي تشرفت بان طلبت منك ان .. »

فاجاب يوليان ماستاكوفتش الذي لم يكن قد هدأ بعد : «اه..؟» واستطرد المضيف في لهجة الملتمس : « انه ابن مربية اولادي ، امرأة فقيرة ، ارملة ، زوجة قسيس شريف . ولذلك .. يا يوليان ماستاكوفتش اذا كان ممكنا » ..

فانفجر يوليان ماستاكوفتش بسرعة : « اوه، لا ، لا ، اعفني يا فيليب الكسينتش ، هذا مستحيل تماما . لقد استعلمت ، لا توجد وظيفة خالية ، وحتى لو كان هناك فان هنالك اكثر من عشرة متقدمين مثلا احق منه كثيرا .. اسف جدا ، اسف جدا .»

فقال المضيف : « يا للاسف جدا ، ان الصبي متواضع وهاديء » .

واجاب يوليان ماستاكوفتش ، وهو يزم فمه بطريقة هستيرية :

« انه شرير بصوت بشع على ما ارى » وقال وقد التفت الى الصبي الصغير ، لماذا تقف هنا ، اذهب الى رفاقك !»

ولم يستطع ان يتمالك نفسه عند هذا الحد ، بشكل ظاهر ، فحملق في بنصف عين . ولم استطع ان اتمالك نفسي اكثر من ذلك فانفجرت ضاحكا مباشرة في وجهه . فالتفت يوليان ماستاكوفتش سريعا بعيدا، وسأل المضيف ، علنا امامي ، عمن يمكن ان يكون هذا الشاب الغريب. وبدآ يتهامسان معا وتركا الحجرة . ورأيت يوليان ماستاكوفتش يهز رأسه في ريبه وهو ينصت لما كان يقوله له مضيفه .

بعد ان ضحكت ملءقلبي ، رجعت الى البهو ، وهناك كان الرجل العظيم محاطا بالاباء والامهات ، بالضيوف والضيفات ، منجذبا الى سيدة كانت قد قدمت له توا . كانت السيدة ممسكة بيد الفتاة الصغيرة التي كان يوليان ماستاكوفيتش يتحدث اليها في حجرة الجلوس منذ عشر دقائق . كان في تلك اللحظة يوزع التهاني والمديح عن جمال الطفلة الصغيرة العزيزة وموهبتها ، ورشاقتها ، وسلوكها . وكان موضع اهتمام الام بصورة ملحوظة . كانت الام تنصت اليه تكاد تدمع عيناها من الفرح. وكانتهناك ابتسامة على شفة الاب . كان مضيفنا مفرطا في ابتهاجه بهذا الفيض العام من المرح . وكان الضيوف جميعا ـ ايضا ـ في تعاطف،بل حتى العاب الاطفال كانت قد انتهت لئلا يشوشوا على الحديث وكان يتخلل الاحترام الجو . ثم سمعت ام الفتاة الجميلة وقد تأثرت حتى اعماق نفسها ، فسأل يوليان ماستاكوفتش ، في عبارات حسنة الاختيار ، ان يجعل لها شرف منح بيتهم صداقته الغالية ، وسمعت باي ابتهاج رائع قبل يوليان ماستاكوفتش الدعوة ، وكيف حاول الضيوف وقد تفرقوا بعيدا في جماعات ـ حسبما تقتضي قواعد اللياقة ـ ان يخجل كل منهم الاخر بالحديث في امتداح صاحب الارض،وزوجةصاحب الارض ، والفتاة الصغيرة ، واكثر من هؤلاء ، يوليان ماستاكوفتش .

وتساءلت ، بصوت عال كثيرا من احد معارفي الذي كان يقف قريبا من يوليان ماستاكوفتش :« هل هذا السيد متزوج ؟ »

فالتمعت عينا يوليان ماستاكوفتش ناظرا الي .

واجابني صاحبي، وقد احزنه حتى اعماق قلبه ، سوء تصرفي الذي قصدته عمدا : « لا » .

. . . . . .

في يوم اخر ، بينما كنت اسير امام كنيسة فوجئت بجمهرة وزحام كبير . كان كل واحد يتحدث عن الزفاف الذي جاءوا ليحضروه . كان اليوم معتما ، قد انتشر فيه الجليد . اتخذت طريقي داخل الكنيسة مع الجمهرة . ورأيت العريس . كان قصيرا ، مستديرا ، وكان شابا سمجا ذا بطن منتفخ ، وكان مظهر اوسمته مهيبا . كان يخطر ، ويشخط ويصدر الاوامر . واخيرا سمعت شخصا يقول ان العروس قد وصلت ، فشققت طريقي ورأيت فتاة جميلة رائعة ، في مستهل ربيع شبابها . لكن جمالها كان شاحبا حزينا ، كانت تبدو مهمومة ، بل لقد بدا الىان عينيها محمرتان مندموع حديثة.لقد اضفى الكمال التقليديلكل لمحة من تقاطيعها جدا من الهدوءوالاتزان على جمالها . الا ان المرء مع ذلك يلمح لمحة من المظهر المبكر الطفلي البريء ، من خلالهدوئها واتزانها ، وخلال هذا الحزن ، وكان هناك بصيص شيء ساذج شاب ، وقلق رغم ذلك ، بشكل غير عادي ، هو انها هي نفسها كانت كانها توسل صامت ، يطلب الرحمة .

لقد قيل انها في حوالي السادسة عشرة ، فنظرت الى العريس متعمدا وفجأة عرفت فيه يوليان ماستاكوفتش الذي لم اكن رأيته من اكثر من خمسة اعوام . ونظرت اليها .. اوه ، يا الهي ! وبدأت اتخذ طريقي سريعا خارج الكنيسة . وكان هناك كلام بين جمهرة الناس ان العروس غنية ، العروس قد دفع لها مهر من خمسمائة الف ، وجهاز تكلف كذا وكذا ..

ورحت افكر بينما كنت اشق طريقي خارجا الى الشارع :

« لقد كان حسابه صائبا . »

ترجمة سمير كرم